

أحاديث رمضان ١٤٢١ - تفسير آيات - سورة هود - الدرس (١٧ - ٥٢) : الإخلاص والعمل الصالح .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٠-١٢-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

مؤشرات الإخلاص بالعمل الصالح

أيها الأخوة الكرام ؛ تعلمون جميعاً ؛ أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح ، وأن العمل الصالح يقيّم من زاويتين :

١- من زاوية الإخلاص .

٢- من زاوية مطابقته لسنة رسول الله .

فمن فعل شيئاً بنية مخلصه ، ولم يطابق سنة رسول الله لا يُقبل .

ومن فعل ما يطابق سنة رسول الله ، ولم يكن مخلصاً لا يقبل .

فالنبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الجامع المانع يقول :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى))

[أخرجه البخاري ومسلم]

ما الذي يكشف لك إخلاصك أو عدم إخلاصك ؟

الحقيقة : الإخلاص أخطر ما في الدين .

قال بعضهم : إنه نصف الدين .

وقال بعضهم الآخر : إنه الدين كله ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾

[سورة الزمر الآية:٢]

فَاعْبُدِ اللَّهَ ؛ يعني : أجعل جوارحك وفق منهج الله ؛ العين تعبد بغض البصر، واللسان يعبده بضبط الأمور ؛ لا غيبة ، ولا نسيمة ، ولا شاكلة من ذلك ، واليد تعبده بأن لا تفعل إلا ما يرضيه، حسناً :

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً﴾

[سورة الزمر الآية:٢]

القلب عبادته الإخلاص ، الجوارح عبادتها الانصياع ، والقلب عبادته الإخلاص ، فإذا مبدئياً قلنا: الإخلاص نصف الدين ، حسناً ؛ لو أنه لم تكن مخلصين ، لا قيمة لعبادتنا ، إذاً : هو الدين

كله ، ما الذي يكشف لك أنك مخلص ؟ أي يكون عملك في السر كعملك في العلانية ، أن تصلي وحدك كما تصلي أمام الناس ، أن تغض البصر وحدك كما تغضه أمام الناس ، أن تتقن العبادات وحدك كما تتقنها أمام الناس ، فإن لم يكن هناك فرق إطلاقاً بين خلوتك وجلوتك ، وسرك وعلانيتك ، فهذا مؤشر إيجابي على أنك مخلص ، هذه واحدة .

المؤشر الثاني : أنك إذا فعلت عملاً صالحاً ، ولم تتلق تقديراً ، ولا تكريماً ، ولا مديحاً ، ولا إشادة ، لا تتأثر ، لأنك فعلت هذا من أجل الله ، فردود فعل الخلق لا قيمة لها عندك إطلاقاً ؛ إن رضيت أو إن سخطت ، إن أقيمت أو إن أدبرت ، إن سمّنت أو لم تسمن ، إنك فعلت هذا ابتغاء وجه الله ، والذي فعلته من أجله عليم بصير، يعلم ما تتطوي عليه ، وما الذي دفعك إليه ؟ إذاً : أنت إذا كنت مخلصاً ، نجوت من عيب شديد : هو استجداء المديح ، استجداء المديح . أكثر الناس لا بد من أن يتحركوا ، يتكلموا ، كي يثيروا الناس حولهم للمديح ، إنك إن أخلصت لله عز وجل ، لا تستجدي المديح من أحد ، ولا تعلق أهمية على مديح الناس لك ، ولا على تقديرهم ، ولا على ثنائهم ، إنك تبتغي بهذا وجه الله .

المؤشر الثالث : من مؤشرات الإخلاص لله عز وجل : أنه إذا فعلت عملاً طيباً ، هذا العمل رُفِعَ إلى الله ، ما الرد الإلهي على هذا العمل الطيب المخلص ؟ أن الله يملأ قلبك غنى وسعادة ، وهذا في تقديري هو الثواب .

والثواب : من ثاب ؛ أي رجع ، فإذا عملت عملاً صالحاً ، وصعد هذا العمل إلى الله عز وجل ، عاد من الله سكينه تملأ قلبك سروراً ، صار ثلاثة مؤشرات .
المؤشر الرابع : أنك لا تبتغي أجراً من أحد .

مرة ضربت مثل : ملك قال لمعلم : أعط ابني دروساً وأنا أحاسبك ، يعني : هكذا ألف الناس : أن الملوك عطاؤها كبير، يعني أقل عطاء سيارة وبيت ، أقل عطاء ، فهذا المعلم علم الابن أربعة دروس ، قال له : أريد الأجرة ، ف.... طلب بالدرس خمسمائة ليرة ، هذه ألفان تفضل ، ظن نفسه ذكياً ، لأنه طالب بحقه ، لكن لو فاته أنه لو ترك الأمر للأب ، كان أعطاه بيتاً وسيارة مثلاً يعني ، فحينما طالب هذا المعلم الابن بأجرة الدروس كان أحقاً ، أنت حينما تطلب أجراً على عمل صالح ، يجب أن تعلم أن أي شيء تأخذه ، لا قيمة له أمام ما وعدك الله به من عطاء ، وكل من عرف الله ، وعرف ما عنده ، وعرف جنته ، وعرف توفيقه في الدنيا ، لا يمكن أن يطلب على عمله الصالح أجراً ، تلاحظ يتفاوت الناس بطلب الأجر ، بتفاوتهم في معرفة الله ، فالمؤمن لا يريد شيئاً ، ولا مديحاً ، ولا ثناء .

وفي قصص للصحابه الكرام وللتابعين ، شيء لا يصدق ، لم يقبل أن يُذكر اسمه إطلاقاً ، هو فعل هذا من أجل الله ، وكلما كان إخلاصك أشد ، كنت الأقرب إلى الله ، وكان عملك متقناً ، أما أحياناً : الإنسان ينسى ، يهمله سمعته .

شخص قال : صلى وراء الإمام أربعين سنة ، ما فانتته تكبيرة الإحرام ، في مرة غفل ، قال : ماذا يقول الناس عني ، يعني : عبادة أربعين عاماً ذهبت أدراج الرياح ، لأنه ما كان مخلصاً لله ، كان يريد تثبيت مكانته عند الناس .

فيا أيها الأخوة ؛ الإخلاص الإخلاص :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾

[سورة يس الآية: ٢٠]

الآن : الإخلاص من علامة الصادقين :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾

[سورة ياسين الآية: ٢٠]

هم لهم ألف صفة ، كلها أغفلت ، قال :

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

[سورة ياسين الآية: ٢١]

هذا ذكرته لقوله تعالى :

﴿يَا قَوْمِ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّ أَجْرِي لِيَ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾

[سورة هود الآية: ٥١]

فعلامة إخلاصك : أنك لا تطلب من الناس أجراً ، هذه واحدة .

مجالات التأديب الرزق والصحة

الشيء الثاني : أن الله كما أقول دائماً : ثبت أشياء كثيرة ، وحرك أشياء قليلة ، فالذي ثبتته باستقرار النظام ، ولراحة الأنام .

يعني : دورة الأفلاك ثابتة ، يمكن أن تنتبأ بأن الشمس سوف تشرق بعد مئة عام ، يوم ٧-١٢-٢٨٠٠ فرضاً ، خمسة وثلاث دقائق ، ثبت عجيب ، بل إن أدق ساعة في العالم بيك بن ، تضبط على حركة المدن ، وقد تختلف ثانية ، أو جزءاً من الثانية في العام كله ، أيهما أدق : الساعة أم حركة النجم ؟ النجم أدق ، هو الأصل .

إذاً : ثبت أشياء كثيرة ، خصائص المواد ، خصائص النجوم ، دورة الأفلاك إلى ما لا نهاية لها ، لكن حرك الصحة والرزق من أجل أن يودبنا ، فمجالات التأديب ، الرزق والصحة :

﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾

[سورة الجن الآية: ١٦]

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾

[سورة المائدة الآية: ٦٦]

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾

[سورة هود الآية: ٥٢]

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾

[سورة نوح الآية: ١٠]

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

[سورة نوح الآية: ١١]

﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

[سورة نوح الآية: ١٢]

فقضية الرزق وسيلة للتأديب ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه : قد يُحرم المرء بعض الرزق بالذنب يصيبه ، وأدبنا بالصحة ، يعني : الإنسان أحياناً يكون شاردًا ، وساهياً ، ولاهياً ، تأتية مشكلة صحية ، فتزیده قريباً من الله عز وجل ، إذا :

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾

[سورة هود الآية: ٥٢]

الطمأنينة التي يتحلى بها المؤمن

النقطة الثالثة في هذه الآيات : أن حالة الأمن التي يعيشها المؤمن ، لا يمكن أن تقدر بثمن ، لو كنت وسط غابة من الوحوش ، وأنت مع الله ، فلا تخش شيئاً ، لأن كل هذه الوحوش بيد الله ، ناصيتها بيد الله ، إن شاء أطلقها ، وإن شاء منعها ، فعلاقتك مع الله ، هذا المعنى سهل فهمه ، أما أن تعيشه القوي أمام قوي ، وتراه يفعل ما يريد ، وإذا بطش بطشة جبار ، ومع ذلك : إذا كنت مع الله حماك منه ، وفي حالات من أصعب الحالات :

أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان مع أصحابه باتجاه البحر ، فتبعهم فرعون ، وما أدراك ما فرعون ؟ ما في أمل بالنجاة أبداً أبداً ، الأمل صفر :

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾

[سورة الشعراء الآية: ٦١]

البحر أمامنا ، وفئة قليلة مستضعفة ، وفرعون بكل جبروته ، وقوته ، وظلمه من ورائهم :

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾

[سورة الشعراء الآية: ٦١]

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

[سورة الشعراء الآية: ٦٢]

فأنت حينما تعتم بصم بالله ، تشعر أنك أقوى الأقوياء ، إن أردت الأمن فكن مع الله ؛ في أي مكان ، في أي زمان ، في أي ظرف ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، لذلك قال تعالى :

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

[سورة هود الآية: ٥٥]

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[سورة هود الآية: ٥٦]

الحكم الشرعي يوافق الفطرة

في شيء ؛ كلمة على : تفيد الإلزام ، يعني : الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة إلزام ذاتي ، فلن.....

يعني في معاني يقولها بعض الناس : يعني لعلك تعبده كل حياتك ، وقيل أن يموت الإنسان ، نذل قدمه فيستحق النار ؟ لا ، هذا ليس من أفعال الله عز وجل ، ما دمت مطيعاً له ، فأنت في بحبوحة ، وأنت في عناية :

﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾

[سورة هود الآية: ٥٥]

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[سورة هود الآية: ٥٦]

يعني : أما فعل قوم لوط .

الآن : العلماء قالوا : هناك فعل يخالف الحكم الشرعي هو حرام ، الزنى حرام ، لأن الزنى مخالف للحكم الشرعي ، لكن هناك عمل يخالف الفطرة ، يخالف أصل التصميم .

يعني : هذا الإنسان مصمم لأنثى ، والأنثى مصممة لغير.....

تقول لها : أي بنيتي ، إنك فارقت العش الذي فيه درجتني إلى بعل لا تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، كوني له أمة يكن لك عبداً ، لو أن الوصية تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج بغنى أبيها ، أو لشدة حاجتهم إليها ، لكنت أغنى الناس عنهم ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلقن الرجال .

في أصل التصميم : فالزنى عقابه الجلد ، طبعاً : إذا كان غير محصن ، ولأن الشذوذ مخالف لأصل التصميم ، مخالف للحكم الشرعي ، ولفطرة الإنسان ، لكن ما بال هذا العصر ، وقد أصبح هؤلاء الشاذون يحملون بطاقات ، ولهم ممثلون في المجالس ، والرؤساء في بلاد الغرب يسترضونهم ؟ لأنهم يسمحون أن يعينوا في الوظائف ، وفي الجيش .

وما نجح أحد رؤساء أمريكا ، إلا بأنه وعد هؤلاء بأن يُعاملوا كأثرياء ، وقد سارت مسيرات في أوروبا بأعداد لا تصدق ، مئة ألف يطالبون بحقوقهم .

وما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها ، إلا أخذوا بالسنين وبأوجاع لم تكن في أسلافهم . وهذا مرض الإيدز : سبعون بالمئة من أسبابه الشذوذ ، ويبدو أنه قديم :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

[سورة هود الآية: ٧٧]

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾

في نقطة تثير الجدل :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي﴾

[سورة هود الآية: ٧٨]

يعني : أيعقل لنبي كريم ، يرى أناساً منحرفين شاذين ، أن يعرض عليهم بناته ؟ هذا شيء غير مقبول ، لكن بعض العلماء قال : العلماء مكانتهم في المجتمع ، كمكانة الأنبياء .
النبي الصادق ، والعالم الصادق : يرى كل بنات المؤمنين كأنهن بناته ، وصية الأب : يني أنتم في بدائل ، أنتم منحرفون ؛ البديل أنثى ، البديل امرأة ، فأنتم تطلبون الشهوة من طريق شاذ منحرف :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ﴾

﴿رَشِيدٌ﴾

[سورة هود الآية: ٧٨]

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

[سورة هود الآية: ٧٩]

الشيء الدقيق الذي يؤكد الولاء والبراء : أن امرأته أهلكت مع قومها ، لا لأنها تحب هذا الفعل ، ولكن لأنها أقرت قومها على أفعالهم وولاتهم ، ومن هوي الكفرة حشر معهم .
يعني : أنا لفت نظري في هذه السفرة الأخيرة : أن الإنسان إذا عاش مع قوم منحرفين ، مع الأيام يألف انحرافهم ، ولا يرى في هذا العمل شيئاً شنيعاً .
والشيء الغريب : أن هذا العمل في بلاد أخرى، يتمتع به أناس من عليية القوم .
يعني : مرة وزير بريطاني يكلم وزير الصحة في مؤتمر صحي ، قال : أنا شاذ .
وقد تجد مدير شركة ، حاكم ولاية ، قاضي كبير ، يعني شخصيات بأعلى المناصب : شاذ .
وفي بريطانيا أقر الزواج من ذكر وذكر ، وتعريف الزواج في مؤتمر السكان : ليس زواجاً بين ذكر وأنثى ، بل بين شخصين ، بصرف النظر عن جنسهما .
إذاً : نحن وصلنا إلى درجات الدنيا في الحياة الاجتماعية ، لكن أيها الإخوة ؛ ما من انحراف أخلاقي إلا وراءه مخالفة لمنهج الله ، أبداً ، وكل تقصير في تربية الأولاد ، وفي الاهتمام بهم ، وفي عدم الأخذ بقواعد الشرع في العلاقات الاجتماعية ، قد يفضي هذا إلى ذلك الانحراف نعم .
يعني : الإنسان المعافى من هذه الانحرافات ، هو في بحبوحة كبيرة ، لذلك قال الله عز وجل :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

حسناً : أنت فيهم في حياتك ، فما معنى الآية بعد مماتك ؟ قال : ما كان الله ليعذبهم وسنتك مطبقة فيهم ، أمرك نافذ في حياتهم .

يعني : إذا حياتنا وفق منهج رسول الله ، نحن في بحبوحه من عذاب الله . نحن دائماً في بحبوحتين ؛ بحبوحه تطبيق السنة ، وبحبوحه الاستغفار ، حتى لو زلت القدم ، أنت مع بحبوحه .

الثانية : بحبوحه أن ينصحك الله عز وجل ، مما ابتلي به الآخرون . يعني : فقط بقضايا الجنس ، أهم نقطة فيها : أنه لا بد من أن تدع هامش أمان بينك وبينها ، فإذا خرقت هذا الهامش ، ذلت القدم هامش أمان ؛ فالخلوة خرق لهامش الأمان ، وإطلاق البصر خرق لهامش الأمان ، وصحبة الأراذل خرق لهامش الأمان ، وأن تطلع على أعمال فنية ساقطة خرق لهامش الأمان ، وأن تقرأ قصصاً ماجنة خرق لهامش الأمان ، وأن تصحب المنحرفين خرق لها من الأمان :

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾

[سورة البقرة الآية: ١٨٧]

ما دام بينك وبين هذه المعصية بالذات هوامش ثابتة ، فأنت في مأمن ، أما إذا خرقت هذه الهوامش .

وأكد أقول : تسع وتسعون بالمئة من الفواحش ، لم يكن في نية أصحابها أن يفعلوها ، أما لأنهم خرقوا هامش الأمان زلت أقدامهم ، لأن الله هو الخبير ، قال :

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَا﴾

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لم يقل : ولا تزنوا ، قال :

﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لأن هذه المعصية لها قوة جذب ، ما دام بينك وبينها هامش أمان ، أنت في حصن حصين ، أما إذا خرقت هذا الهامش اختلف الأمر نعم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

والحمد لله رب العالمين